منهج القرآن الكريم في البناء المعرفي

مصطفى حوامده، كلية الشريعة، جامعة جرش، جرش، الأردن.

ملخص

هدف البحث إلى معرفة وجهة نظر القرآن الكريم في المنهجية المنظومية وكيفية بناء المعرفة الإنسانية في ضوء هذه المنهجية وقد توصل البحث إلى النتائج التالية:

أولا: دعا القرآن الكريم إلى استخدام منهجية منظومية لبناء معرفة إنسانية تقوم على دراسة الموضوع كوحدة واحدة مع التركيز على الوشائج والعلاقات التي تربط بين جزئيات هذا الموضوع، وبينها وبين الموضوع نفسه. لذلك كان القرآن الكريم يعرض الأفكار والمفاهيم عرضاً شمولياً يتضمن مقاصد الوحي ومتخذاً من الكون والإنسان والحياة وعلاقتها بالخالق مصدراً للمعرفة.هذا من جانب ومن جانب أخر نهى القرآن الكريم عن استخدام المنهج التجزيئي للمعرفة وهو يماثل المنهج الخطي، وقد ورد في ذلك قوله تعالى﴿الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾(الحجر:91-93)، والقراءة العضينية تعني القراءة التجزيئية التي يعالج فيها النص بمعزل عن بقية النصوص ودون الاهتمام بالعلاقات التي تربط النصوص بعضها ببعض، كما أن القرءة العضينية تعني إظهار بعض النصوص وإخفاء غيرها وهذا حال بني إسرائيل حيث قال تعالى في شأنهم ﴿ وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً ﴾.(الأنعام:91)

ثانياً: أبرز القرآن الكريم هوية الكون والإنسان والحياة بطريقة منظومية على أساس أنها جميعها تقوم على مبدأ الخلق، فهي مخلوقة لخالق قادر يتصف بكل صفات الكمال التي تستوجب كونه خالقاً، وعلى أنها مسخرة للإنسان المكرم المستخلف

© جميع الحقوق محفوظة لجامعة اليرموك ISSN (1023- 0165).2005

في الأرض، وعليه أن يصدع بمهمته الاستخلافية بتعمير الأرض وإصلاحها وإقامة مجتمع إنساني مثالي راقٍ عليها.

ثالثاً: أبرز القرآن الكريم هوية الإنسان كونه المخلوق الأهم في هذا الوجود وشكل هذه الهوية من مواءمة عنصرين متناقضين متباعدين يجمع بينهما الإنسان هما عنصر مهين يمثل طبيعة الإنسان كونه مخلوقاً من تراب ومن ماء مهين يتصف بالضعف والمحدودية، وفي نفس الوقت هو مخلوق مكرم خلق في أحسن تقويم، وأعطي من الإمكانات ما يؤهله للقيام بمهمة الاستخلاف في الأرض ومهمة تسخير مكونات الكون له.

رابعاً: أبرز القرآن الكريم هوية الكون من أنه مجموع المكونات من حول الإنسان، وهي مصدر الزينة والإغراء، وقادرة على جذب الإنسان وخداعه، وهي مسخرة للإنسان ومهمة على طريق بناء الحضارة الإنسانية. فبين القرآن الكريم دور الإنسان في التعامل معها بحذر، واستثمارها استثماراً فاعلاً، ولفت الانتباه إلى أن هوية الكون بموجوداته لا تتجاوز كونها مخلوقة لله وخاضعة لإرادته وتدبيره وأنها مسخرة للإنسان يستطيع أن يتصرف بها يستثمرها ويستفيد منها دون أن يخل بمعيار التوازن الذي يقتضيه الاستخلاف وإصلاح الأرض.

خامساً: أما بالنسبة لهوية الحياة فقد بنى القرآن الكريم المعارف الخاصة بها على منظومة من المعايير منها أنها دار العاجلة مرتبطة بالدار الآخرة الأبدية، ومنها أنها تافهة وضئيلة إلى جانب الدار الآخرة، ومنها أنها دار زينة ومتعة، ومنها أنها دار اختبار، فوصفها بأنها دار فانية وأنها لا تستحق أن يسعى الإنسان لها لتفاهتها، ولكنه في نفس الوقت أبرز دورها في التزود للدار الآخرة على أنها معبر لها وساحة الاستعداد والتزود، يعد هذا الجانب مقدساً وعلى الإنسان أن يستغلها استغلالاً فاعلاً ليس لإشباع شهواته ولكن لتعمير الكون وبناء المجتمع المثالي والتزود للآخرة.

سادساً: وبوجه عام فإن القرآن الكريم قام ببناء المعرفة وقواعدها بناء منظومياً منطلقاً من أصل واحد هو الكون والإنسان والحياة كمنظومة واحدة، أو بعبارة أخرى جعل الوحي والوجود المادي هما مصدر المعرفة الإنسانية. وفي ضوء هذه القاعدة فإن الدراسة الحالية تدعو إلى إعادة النظر في الفكر الإسلامي والإنساني وفي المعرفة الإسلامية والإنسانية وفي الحضارة الإسلامية والإنسانية لإعادة بنائها على هذه القاعدة من منهجية القرآن الكريم.

مقدمة

يسود العالم اليوم حضارة تقوم على المادية والنفعية وإن سميت بأسماء مختلفة أو لبست ثياباً متنوعة، ولا يحتاج فشلها في قيادة المجتمع الإنساني وسياسة شؤونه إلى برهان أو إشارة، فهي بتاريخها الدموي مع البشرية وانصرافها كلياً إلى تقديس المادة واستغلال الشعوب في سبيل إشباع نهمها في السيطرة على ثروات تلك الشعوب وما تثيره وتفعله على الطريق إلى ذلك من فتن وتمزيق الجماعات وطرح الشعارات الزائفة والأفكار الهدامة والمذاهب الانحلالية وما ارتكبته من مجازر دموية لم تسلم منها بقعة من بقاع الأرض وغيره الكثير، جعلت البشرية جمعاء في مأزق خطر وعرضة للهلاك. ولم يعد خافياً على أحد حاجة البشرية إلى قيادة جديدة تحفظها من غول هذه الحضارة المادية النفعية وجشعها، وتحقق لها الأمن والاستقرار وتخلصها من خلودها إلى قبضة التراب والحمأ المسنون لترتقي بها إلى منزلة التكريم والتميز وسمو نفخة الروح الإلهي التي تميز بها الإنسان فلا يعيش مشدوداً إلى المتاع الأدنى بل يشرئب إلى الأفق الأعلى،ولا يحقق له ذلك إلا الإسلام فحضارته الوحيدة التي تقدم للبشرية منهجاً متوازناً متكاملاً، يجمع بين المادة والروح، ويقوم على منظومة من الحقائق والمعارف الإنسانية والكونية والحياتية تحدد مركز الإنسان وغايته ومهمته في الأرض، وعلاقته بالكون والحياة وخالق الكون والحياة، وتصلح ما فسد من شؤون الحياة، وتجتث كل ما شاع وانتشر من أشكال العبودية للأهواء والأفكار والمادة والأشخاص والأنظمة وغيرها من الطواغيت تحت مظلة تقدم الحضارة وعصر التكنولوجيا. لذلك فالأمة الإسلامية أمام مسؤوليتها وجهاً لوجه خاصة وأنها الأمة الوسط التي أوكل الله إليها مهمة الشهادة على الأمم جمعاء قال تعالى﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ (البقرة:143)، مهمتها حمل الهداية إلى البشرية عامة، وإغناؤها بالمعرفة الشمولية الراقية والسعادة في الدنيا والآخرة قال تعالى﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ (سورة آل عمران:110)، ولكن المجتمع الإسلامي في هذه الأيام تقاعس عن مهمته، فلم يعد يحتكم إلى قواعد فكرية أو موازين أخلاقية موحدة، وأصبح خليطاً مشوهاً من الأفكار والعقائد بسبب المؤثرات الثقافية الغربية التي استمرت تعصف به خلال قرون طويلة، وغلبة النفوذ الأجنبي السياسي والاقتصادي على الجوانب المهمة من حياته خلال أقنية لا حصر لها.(الشريف،1984: 205)

إن عالمنا الإسلامي اليوم تتقاسم عقول أبنائه المذاهب الفكرية الغربية كالعقلانية والوضعية والطبيعية والمادية الجدلية والمادية المطلقة ونحوها، كما تتوزع دياره المذاهب والنظم السياسية القومية والاشتراكية والديمقراطية، وتشترك في الهيمنة على ثقافة بنيه ومناهجهم الثقافية الغربية بمدارسها المختلفة وجوانبها المتنوعة، وحالة التمزق والصراع الدائم والتفكك الاجتماعي- التي تعيشها معظم ديار الإسلام- حالة لا يمكن أن تتوقف أو تنتهي، إلا بعد أن يتم تقديم البديل الفكري والثقافي الإسلامي، وتبدأ الأجيال المسلمة تتربى على هذا الفكر، وتصاغ عقليتها وفقاً لهذه الثقافة ومناهجها وفنونها. (العلواني، 1994: 24-25).

إن العالم الإسلامي أحوج ما يكون في هذه الأيام إلى وقفة مراجعة يتعرف فيها على أسباب انحطاطه وتشرذم ثقافته ويكشف عن مدى ارتباطه بأصوله المعرفية وثوابتها وحرصه على مصادرها.

إن الفكر الإسلامي في هذا العصر يعاني من أزمة موضوعية تتمثل في تشتته واختلاف معارفه وتعارضها بسبب تعدد مرجعياته وعدم انسجام بعضها في كثير من الأحيان مع أصول الإسلام التي أرساها القرآن الكريم وشرحتها السنة النبوية، فاختلطت الأمور على المسلمين وغير المسلمين إلى أن أصبحت هذه الحالة نقطة ضعف وذريعة لأصحاب الأهواء والأغراض الوضيعة سواء في مجال استغلالهم الإسلام لمصالحهم الخاصة أو ادعائهم عدم صلاحيته للتطبيق العملي أو الدعوة إلى تطويعه تحت سلطان العلمانية المعاصرة. (الشريف، 1984)

لقد حدد القرآن الكريم اتجاه الحضارة الإسلامية منذ اللحظة الأولى التي نزل فيها قوله تعالى: (إقرأ...) وحدد مهمة المجتمع الإسلامي في التاريخ طبقاً للآية الكريمة﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، ولا يخفى على أحد منزلة القرآن الكريم المعجز الخالد، وما اشتمل عليه من آيات ومعجزات، وما انفرد به من آفاق وأعماق، وما قام به من أثر في نشر الهداية، والوصول إلى الحقيقة، وربط المخلوق بالخالق، وإخراج الجيل البشري من الظلمات إلى النور، ومن السخافات والسفالات، إلى قمة الإنسانية السامية القائمة على الرسالة السماوية، والهداية الربانية. (الندوي، 2004: 8) لقد قدم القرآن الكريم فكراً ناهضاً ومعرفة متكاملة، وبين "أن المعرفة الحقيقية لا تتم على وجهها الصحيح، ولا تنتج أهم ثمارها المرجوة، إلا إذا نهضت على شرط أساسي مهم، طالما لفت القرآن النظر إليه من خلال أحاديثه عن الإنسان والكون والحياة، وهو أن الوجود وحدة

مترابطة المرافق والأجزاء، فلا تستقيم معرفة أي جزء منه إلا ضمن قاعدة واسعة من البصيرة العلمية بالدائرة الكونية كلها، فإن فقد هذا الشرط جاءت المعرفة مقطعة مهتزة مضطربة ولن تكون عندئذ مرآة صافية صادقة للحقيقة".(البوطي،1998: 120)، إننا بحاجة ماسة في هذا العصر إلى إعادة قراءة للقرآن الكريم وفهمه على هذا الأساس، عندها ستكون معارف القرآن الكريم إبداعية مبتكرة وليست التقاطية ولا مقتبسة، ومما لا شك فيه أن واجب الباحثين المسلمين إبراز دور القرآن الكريم في تفجير المعرفة الإنسانية الإبداعية المتكاملة المنقذة للبشرية والمعمرة للوجود كله، وتسعى هذه الدراسة للإسهام في هذا الدور من خلال محاولة الكشف عن منهجية القرآن الكريم في بناء المعرفة الإنسانية المفيدة.

أهمية الدراسة ومشكلتها

يتطلب الحديث عن المعرفة الوقوف على معناها اللغوي والاصطلاحي فقد ورد في تاج العروس أن "المعرفة والعرفان إدراك الشيء بتفكر وتدبر لأثره، فهي أخص من العلم ويضادها الإنكار، ويقال فلان يعرف الله ورسوله ولا يقال يعلم الله متعدياً إلى مفعول واحد لما كان معرفة البشر لله تعالى هو تدبر آثاره دون إدراك ذاته" (الزبيدي، 1987: 133/24). أما لسان العرب لابن منظور فقد سوى بين المعرفة والعلم، فجاء فيه "العرفان هو العلم وعرفه يعرفه عِرفة وعرفاناً وعِرفاناً ومعرفة والعريف والعارف بمعنى عليم وعالم" (ابن منظور، 1987 : 236/9) وبالرغم مما ورد في التفريق بين المعرفة والعلم إلا أنه يستخدم العلم في موضع المعرفة والعكس وقد يستخدمان ويراد منهما مطلق الإدراك الشامل للتصور والتصديق. أما في الاصطلاح فقد شاع في هذا العصر تعريف للمعرفة صدر عن منظمة اليونسكو وتبنته مختلف المؤسسات العلمية والثقافية على مستوى العالم بما فيه العالم الإسلامي جاء في مضمونه "أن المعرفة كل معلوم خضع للحس والتجربة".(العلواني،1994)

ولا يحتاج هذا التعريف إلى طول تفكير لتكتشف أنه حصر المعرفة ومصادرها بالوجود المادي الذي يخضع للحس والتجربة البشرية وتجاهل ما وراء ذلك من معرفة لا تخضع لهذه المعايير، وعلى الرغم من أن الوجود المادي بكل أشكاله وخصائصه ومعطياته يشير بشكل صريح وواضح إلى هذا النوع من المعرفة المتعلقة بما وراء المادة ومصدر وجودها، فالمعرفة التي تتعلق بوجود الخالق سبحانه وتعالى وما يتصف به من صفات كمال ملازمة لوجوده لم يدخلها هذا التعريف ضمن المعرفة

الإنسانية بالرغم من أن الحس والتجربة يقودان العقل إلى إدراكها وإثباتها والتيقن منها، وكذلك الحال بالنسبة إلى معجزة القرآن الكريم، فبالرغم من تحديه للعرب الذين تميزوا بفصاحتهم وملكهم لزمام اللغة وسيطرتهم على واردها وشاردها، بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة منه، وعجزهم عن ذلك، وكان هذا التحدي للحس والتجربة، إلا أنهم لم يلتفتوا إليه كمصدر للمعرفة أيضاً، فقد قصروا هذا التعريف للمعرفة على المعرفة المادية وأعرضوا عن المعرفة المتعلقة بالغيب وبالوحي مما أدى بالمعرفة المعاصرة إلى التمحور حول المادة، وأخذت صبغتها المادية. نحن اليوم أمام وضعية عالمية تعمل على توظيف المعارف والعلوم واكتشافاتها ومنجزاتها، توظيفاً يفصم العلاقة بين الخالق والكون والإنسان وتتجاهل الغيب، وتباعد بين العلم والقيم، هذا الوضع يطرح علينا تساؤلات كبيرة ومتعددة عما ستؤول إليه المعرفة الإنسانية في ظل هذا الفصل.

ومما لا شك فيه أن وجهة النظر المادية للمعرفة مستمدة من الفلسفات المعاصرة والتي تمتد جذورها عبر تاريخ الفلسفة القديمة، فالسوفسطائيون مثلاً نادوا بنظرية معرفية إنسانية معتبرين أنه لاشيء موجود في ذاته ولذاته وكل ما هو موجود فإنما وجوده بالنسبة للإنسان، والحقيقة إنما تدرك بالإحساس المباشر أي أن الإحساس هو معيار الحقيقة، فالحقيقة هي ما تراه وتسمعه وتلمسه وتذوقه وتشمه، وقد أغفلوا كل ما له علاقة بالغيب. ولم تكن الفلسفة الجدلية المتمثلة بفلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو الذين انشغلوا بالرد على السفسطائية تختلف في نتائجها، وهم وإن جعلوا العقل هو سبيل المعرفة لا الحس، إلا أنهم تخبطوا في وصف المعقولات واعتبروا الوجود الحقيقي هو وجود الماهيات المطلقة وأن المعرفة الحقيقية هي معرفة الماهيات المركوزة في النفس غير المدركة بالحس وعندما اشتغلوا بكيفية تكوّن المعاني والتصورات اضطروا إلى القول بأنها تتكون عن طريق حس من الحواس، فجعل أرسطو مثلاً الاحساس المباشر بشيء حاضر في الحال هو مبدأ المعرفة وأصلها، أي أن المعرفة عنده تبدأ دائماً من التجربة الحسية المباشرة فهذه التجربة هي مصدر كل معرفة. ورغم أنه استخدم الجدل كأسلافه إلا أنه اكتشف أنه لا يؤدي إلى اليقين مما اضطره إلى وضع ما يسمى بعلم المنطق لتنظيم الفكر الإنساني وجعل من المعلومات الحسية والمعلومات العقلية الأولية والثانوية التي تكتشف بمراعاة الأصول المنطقية هي حقائق قاطعة ولكنه اكتشف فيما بعد بأن هذه الطريقة يمكن أن يثبت بها الشيء وضده (مرحبا، 2000: 120-163) ومما يؤخذ على هذه الفلسفات قصور منهجياتها عن الوصول إلى شروط المعرفة الصحيحة، فقد انساقوا وراء

استنتاجات سريعة وعلى أساس ما يستنتجون يضعون ما يشاؤون من المذاهب، فتجاربهم في هذا الباب ناقصة، ومعرفتهم لم تكن قائمة على الاستدلال الدقيق، وهي تقوم على افتراضات نظرية ومحاولات غير ناجحة لجمع منثورات المعارف والعلوم الجزئية في كليات. اما الفلسفات الحديثة والتي ارتكزت بدورها على الفلسفات القديمة فقد جعلت مصدر المعرفة هو الواقع والأشياء وأن الحواس مسؤولة عن إدراك هذه المعرفة، فالماركسية ترى حياة المجتمع المادية تشكل واقعاً موضوعياً ومستقلاً عن إرادة الناس وإن حياة المجتمع العقلية أي مجموعة الأفكار الاجتماعية والأديان ونظريات علم الجمال والفلسفات هي انعكاساتها لهذا الواقع المادي، ولم تختلف الفلسفات الغربية عن ذلك كثيراً فمعظمها تنظر إلى المعرفة نظرة مادية فهذا وليام أوجبرين يرى أن الجانب المادي أي مجموع الأشياء وأدوات العمل والثمرات التي تخلفها هي الأساس، والقوة المغيرة عنده كامنة في الأشياء لا في الأفكار لأنها تقبل التغير بأسرع مما تقبله الأفكار (بن نبي،1984: 31). وقد تخبطت الفلسفة المعاصرة كسابقتها كثيراً وهي تحاول جمع شتات المعرفة وأجزائها دون الاعتماد على نظرة شمولية كونية، فجاءت أبحاثها غير مستقرة وغير ثابتة فكان ذلك دليل عجزها، وعلى سبيل المثال الدراسات التي نهضت لدراسة قصة النشأة الإنسانية الأولى وفرضية تطورها تباينت واختلفت، فنظرية لامارك وهي أقدمها ترى أن الأحياء كانت ممتزجة في أصل واحد ثم تفاوتت واختلفت تبعاً لتأثير الوسط والبيئة والحاجات العضوية، ثم تلتها النظرية الداروينية القديمة التي اعتمدت قانون البقاء للأصلح، وهناك الداروينية الحديثة التي ترى أن الإنسان تطور تطوراً عشوائياً على أساس الطفرة لا على أساس الرقي، وقد قامت هذه النظريات على المدافعات الفكرية وفي كل مرة كانت تتعرض للنقد الشديد يفند فيها اللاحق السابق، وسبب هذا المأزق هو عدم قيام هذه الدراسات على قاعدة كبرى تنهض عليها شتى فروع المعارف والعلوم تمثل أصل الوجود كله والذي يستند إلى دعامة خلق وتدبير من قبل فاطر حكيم أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (البوطي، 1998 : 128-131).

لذلك أصبحت المعرفة الإنسانية اليوم بأمس الحاجة إلى إعادة نظر، وإعادة بناء، وفق منهجية تقوم على الوحي والوجود معاً لتكون قادرة على مد الإنسان بحاجاته من المعارف لتمكنه من القيام بمهمة الاستخلاف وبناء الحضارة. إن موضوع المعرفة الصحيحة يتعلق بالكون والإنسان والحياة ووجهة نظر الإنسان فيها، وهي في حقيقتها منظومة التصورات الذهنية والمعتقدات الفكرية لدى الفرد أو المجتمع التي وجه القرآن إليها وكذلك التقويم حول نظام حياتي وأسلوب معيشي معين، تثريه عادة

التجارب العملية التي تضبط الصواب والخطأ وتقوم السلوك وتضع القوانين النهائية القابلة للتطبيق.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن ما نراه من العلوم والمعارف والتي غالباً ما ينظر إليها على أنها المستقلة بعضها عن بعض ليست في حقيقتها إلا أجزاء أو أعضاء مترابطة في بناء هذا الهيكل الكوني كله، فهي في الحقيقة غير مستقلة عن بعضها بل إن بينها من التمازج والتداخل والتفاعل، ما يجعلك لا تحيط علماً بأي منها إلا على ضوء ما يبصرك به المجموع الكلي لذلك الهيكل الكوني الشامل. ولا قيمة لأي معرفة جزئية يكسبها الإنسان عن الوجود ومكوناته إذا كانت بمعزل عن معرفة ما يتصل بها من الأجزاء والجوانب الأخرى(البوطي،1998 :122-123)، وهذا مسوّغ آخر لإعادة النظر في بنية المعرفة الإنسانية المعاصرة انطلاقا من تكامل الوحي والوجود واستخدام منهجية منظومية لتحقيق ذلك، ولما كان القرآن الكريم هو المصدر الوحيد الذي جمع في بناء المعرفة بين الوحي والوجود واستخدم في ذلك منهجية قرآنية خاصة، فهل سيكون لهذا التوجيه القرآني لفهم الكون والإنسان والحياة أثر فاعل في بناء المعرفة الإنسانية الراقية؟

إن هدف هذه الدراسة هو إلقاء الضوء على أثر القرآن الكريم في بناء المعرفة الإنسانية وفق قواعد صحيحة ومنهجية منظومية شمولية. ومن هذا المنطلق ستحاول الدراسة الإجابة عن الأسئلة التالية:

السؤال الأول: ما هي أهمية المعرفة في الشهود الحضاري للإنسان؟

السؤال الثاني: ما هي خصائص القرآن ومقاصده وأثرها في تكوين جو من المصداقية العلمية للبناء المعرفي الصادر عن القرآن الكريم؟

السؤال الثالث: ما هو دور المنهج المنظومي في بناء المعرفة القرآنية ؟

السؤال الرابع: كيف تعامل القرآن الكريم مع منظومة الكون والإنسان والحياة في سبيل بناء معرفة إنسانية صحيحة.

أولا: أهمية المعرفة في الشهود الحضاري للإنسان

تتضح أهمية المعرفة في الشهود الحضاري للإنسان من خلال أثرها في تشكيل البنية الثقافية والحضارية والمدنية وإعطائها ألوانها وروائحها وأشكالها وهي تعمل على مستوى الفرد المجتمع معاً، فشتان بين الإنسان الذي ينظر إلى الحياة الدنيا

كمعبر للأخرة ويعد لها العدة وبين من يراها فرصة سانحة لا غد لها ولا عاقبة وراءها إلا الزوال أو العدم المطلق، وشتان بين مجتمع تدور قيمه حول الحق والخير وآخر تدور قيمه ومقاييسه حول الكم والوزن، فمما لا شك فيه أن وجهات النظر هذه تؤدي أثراً كبيراً في تلوين الثقافات الإنسانية وما يقوم عليها من حضارات ومدنية، "فالبناء المعرفي الغربي مثلاً يدور حول مفهوم الوزن والكم، وهو عندما ينحرف نحو المغالاة يصل حتماً إلى المادية في شكليها البرجوازي للمجتمع الاستهلاكي، أو الجدلي للمجتمع السوفيتي، أما البناء المعرفي الذي يقوم على القرآن الكريم فقد اتخذ مداره حول فكرة واحدة تكون حيناً حب الخير وحيناً آخر كره الشر" تلك هي رسالة الفكر الإسلامي عبر عنها القرآن الكريم بقوله﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران: 110). (بن نبي، 2000: 24). "إن المقياس الوحيد لسير الحضارة الإنسانية في طريقها السليم وإمكان الحصول على ثمارها المرجوة إنما يتمثل في مدى المعرفة الدقيقة لهوية كل من عناصر الكون والإنسان والحياة، والتنبيه إلى الخصائص الحقيقية لكل منها إذ بهذه المعرفة يتمكن الإنسان من الحصول على تركيبة الجهاز الحضاري الصحيح المتآلف من مجموعة هذه العناصر الثلاثة". (البوطي،1998: 33)

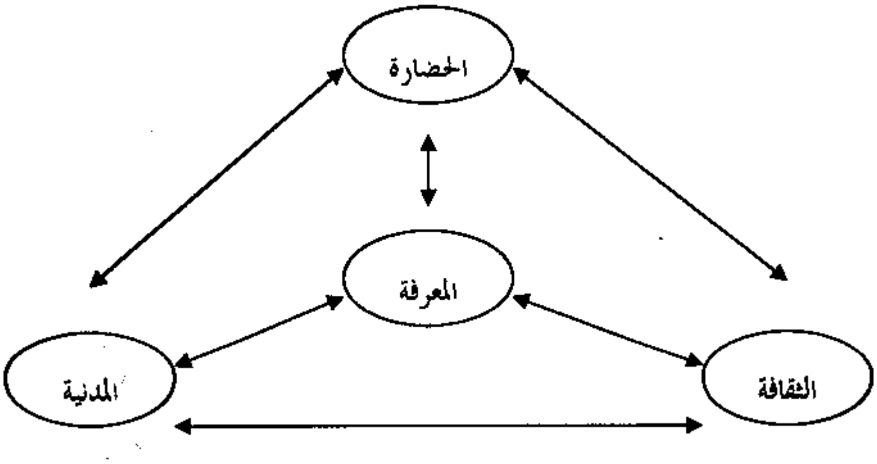

نموذج تأثير المعرفة في الشهود الحضاري للإنسان

وهكذا تتضح لنا أهمية سلامة البنية المعرفية من أي نقص أو انحراف لانعكاس ذلك على بنية الثقافة والحضارة لأي مجتمع ولون مدنيته.وحتى نضمن سلامة ذلك لا بد من انبثاق المعرفة من مرجعية شمولية تهتم بالوحي والوجود في آن واحد وهذا لا يتحقق إلا من خلال القرآن الكريم.

ثانياً : تعريف بالقرآن الكريم:

إن التعريف بالقرآن الكريم مصدراً للمعرفة الإنسانية يقتضي الحديث عن خصائصه ومقاصده وهما جانبان مهمان في تشكيل بيئة صالحة موثوقة تنبت في إطارها المعرفة الصحيحة التي تتناسب مع طبيعة الوجود وتلبي حاجات الإنسان في استعمار هذا الوجود.ولهذه الغاية فقد عرف القرآن الكريم بنفسه فكانت خصائصه أنه:

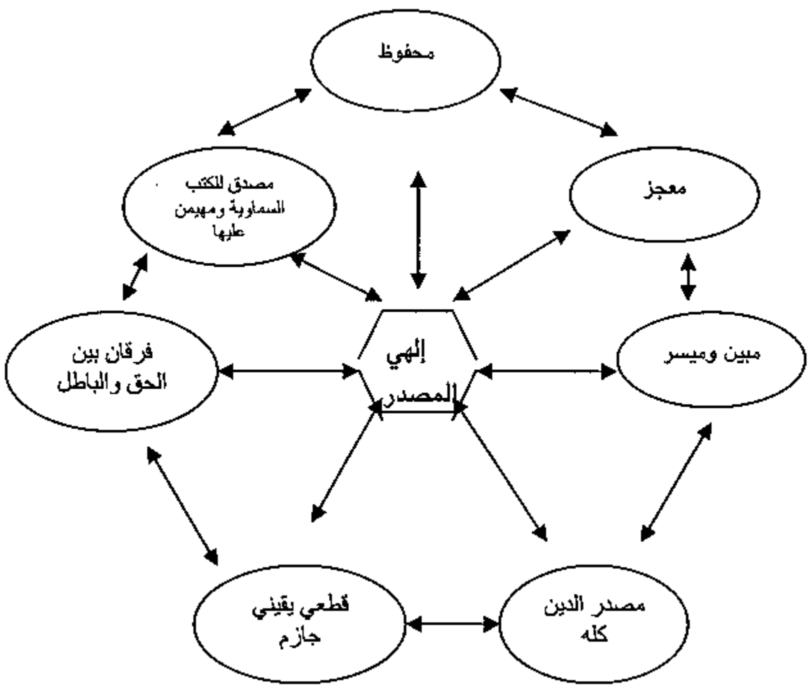
محفوظ
مصدق للكتب السماوية ومهيمن عليها
معجز
فرقان بين الحق والباطل
إلهي المصدر
مبين وميسر
قطعي يقيني جازم
مصدر الدين كله

1. كتاب إلهي المصدر لفظاً ومعنى أوحاه الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق جبريل قال الله تعالى في ذلك ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾(سورة الشعراء: 192-195). وقد وصف القرآن نفسه بأوصاف تؤكد علو منزلته، قال تعالى ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾(سورة الواقعة:77-80). وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن ينزل القرآن منجما وفقاً للحوادث ليكون أرسخ في القلوب وأوقع في العقول وهو يعالج الوقائع بآيات الله ويرد على الأسئلة ويثبت فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم في مواجهة المحن والشدائد التي كانت تنزل به وبأصحابه(القرضاوي،2001/ب: 22) ، قال تعالى﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾(سورة الإسراء: 106)، وقال أيضاً﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً * وَلاَ يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ (سورة الفرقان:32-33)
2. وهو كتاب محفوظ قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (سورة الحجر : 9).
3. وهو كتاب معجز: فهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الكبرى تحدى به العرب الذين تقولوا عليه الأباطيل قال تعالى﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (سورة الطور: 34)، فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات قال تعالى ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة هود:13) فلما عجزوا تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله قال تعالى ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة: 23-24) ،فلما عجزوا أعلن القرآن الحقيقة الخالدة في بيان إعجازه المطلق قال تعالى﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (سورة الإسراء: 88)

4. وهو كتاب مبين ميسّر للفهم والذكر قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾(سورة القمر:17)، وقال أيضاً﴿وَمَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة النحل:64).

5. وهو كتاب الدين كله فهو مصدر العقيدة قال تعالى ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(سورة البقرة : 285) ، وهو مصدر للشريعة قال تعالى (ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾(سورة الجاثية:18)، وهو مصدر الأخلاق الحميدة سواءٌ كانت ربانية تجسد الصلة بالله وتعمق التقوى، أو إنسانية لا يتم حسن المعايشة إلا بها كالصدق والأمانة وقد عدّ القرآن هذه الأخلاق بنوعيها الرباني والإنساني من تمام الإيمان ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً﴾ (سور الأنفال:2-4).

6. وهو علم قطعي يقيني جازم ، قال تعالى﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة:2)، وقال تعالى﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:41-42).

7. وهو فرقان بين الحق والباطل والخير والشر والنور والظلمات والهداية والضلالة والحلال والحرام والإيمان والكفر وهو محكم ومفصل قال تعالى﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَماً وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً﴾ (الأنعام:114) ، قال تعالى﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً﴾ (الفرقان:1)، وقال أيضاً ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (سورة الأنعام :122) .

8. وهو مصدر المعرفة عن الكتب السماوية السابقة ومهيمن عليها قال تعالى﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ (المائدة:48).

أما مقاصد القرآن الكريم فهي تشكل منظومة من المبادئ تناولها علماء المسلمين بالشرح والتفصيل وهم وإن اختلفوا في تصنيفها إلا أن الآراء تكاد تتفق على المقاصد الرئيسة وخاصة ما يتعلق منها بالعقيدة من توحيد وبعث ورسالة، وضوابط السلوك الإنساني والاجتماعي (الدغامين، 1998: 483). وقد عرضت سور القرآن الكريم وآياته هذه المقاصد وناقشتها وتصدت لركام الفكر البشري المناهض والمتخلف عنها وللدكتور القرضاوي تصنيف مفصل يتناسب مع غاياتنا من هذا البحث نتناوله باختصار(قرضاوي، 2001/ب :83) كما يلي :

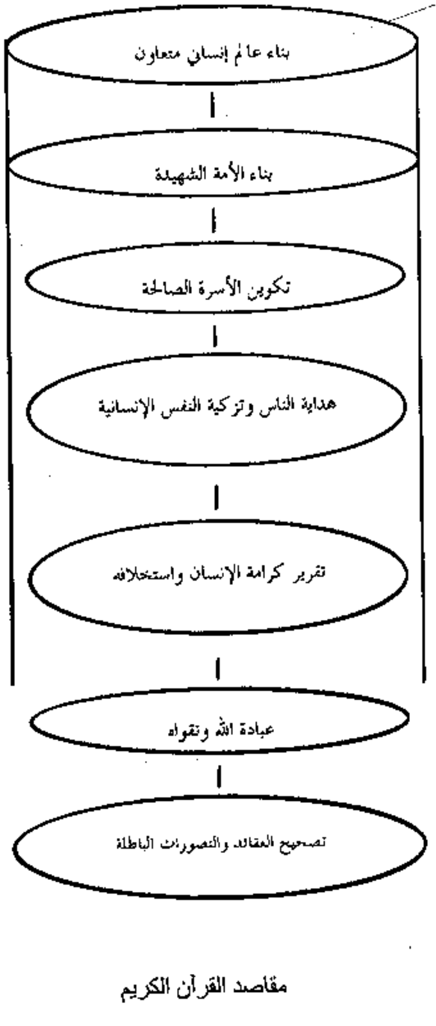
بناء عالم إنساني متعاون
بناء الأمة الشهيدة
تكوين الأسرة الصالحة
هداية الناس وتزكية النفس الإنسانية
تقرير كرامة الإنسان واستخلافه
عبادة الله وتقواه
تصحيح العقائد والتصورات الباطلة

مقاصد القرآن الكريم

ويعد مقصد توضيح العقائد وتصحيحها المقصد الأساس الذي تنبثق منه كل المقاصد وتقوم عليه، ففي مجال التوحيد لا تكاد تجد أية من الآيات تخلو من التصريح به أو الإشارة إليه، وكذلك الأمر بالنسبة لبقية أركان العقيدة الإسلامية قال تعالى ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (سورة الاخلاص : 1-4) وقال أيضاً ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (سورة البقرة : 285) وقال في تصحيح العقائد ﴿اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ﴾ (سورة الأعراف : 59) وقال ايضاً ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾ (سورة المؤمنون : 115).

وفي مجال توجيه البشر إلى حسن عبادة الله وتقواه قال الله تعالى ﴿اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(سورة البقرة :21).

وفي مجال تقرير كرامة الإنسان واستخلافه قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (سورة الإسراء :70).

وفي مجال هداية الناس وتزكية النفس البشرية قال تعالى وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (سورة الشمس : 7-10) وقال أيضاً ﴿لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(سورة آل عمران : 164)، وقال أيضاً ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (سورة المائدة :21).

وفي مجال تكوين الأسرة الصالحة قال تعالى ﴿ وَمِنْ ايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُواْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة الروم : 15-16).

وفي مجال بناء الأمة الشهيدة على البشرية قال تعالى ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾ (سورة الحج : 78) .

وفي مجال الدعوة إلى عالم إنساني ناهض قال تعالى﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾ (سورة سبأ : 28)، وقال أيضاً ﴿قُلْ يَأَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة سبأ : 28) وقال أيضاً ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(سورة الحديد :25).

ثالثًا: دور المنهج المنظومي في بناء المعرفة القرآنية:

شاع بين المسلمين في فهمهم للقرآن الكريم وتفسيره خلال العصور السابقة الاعتماد على ما يسمى بالمنهج التجزيئي والذي يقوم على تناول المفاهيم في الموضوع الواحد منفصلة عن بعضها البعض دون الالتفات إلى ما بينها من علاقات، وأصحاب هذا الاتجاه التجزيئي في فهم القرآن الكريم يتناولون الآيات في إطار القرآن الكريم حسب تسلسل التدوين لها في المصحف، مستهدفين فهم مدلول اللفظ والآية والوقوف عند حدود فهم هذا النص ولا يتجاوزونه غالبا. وحصيلة فهم القرآن الكريم بهذه الطريقة كم من الأفكار في حالة تناثر وتراكم عددي دون فهم أوجه الارتباط ودون كشف التركيب العضوي لهذه المجاميع من الأفكار ودون أن نحدد في نهاية المطاف نظرية قرآنية لكل مجال من مجالات الحياة فهناك تراكم عددي للمعلومات، إلا أن الخيوط بين هذه المعلومات أي الروابط والعلاقات التي تحولها إلى مركبات نظرية ومجاميع فكرية يمكن أن تحصر أساسها نظرة القرآن لمختلف المجالات والمواضيع لم يلتفت إليها في الغالب، وقد أدى هذا التناثر ونزعة الاتجاه التجزيئي إلى ظهور التناقضات الذهنية العديدة في الحياة الإسلامية فقد كان يكفي أن يجد المفسر آية تسوغ مذهبه ليعلن عنه ويجمع حوله الأنصار والأشياع (الصدر، 1980: 12).

وإلى جانب هذا المنهج أو المنحى ظهر هناك الاتجاه الموضوعي في قراءة القرآن الكريم وهو يتوجه في فهم القرآن الكريم وسوره وآياته توجهاً منظومياً يقوم على أساس وحدة الموضوع وتكامل علاقاته البينية على أساس أن القرآن الكريم وحدة واحدة لا تتجزأ، يقول الشيخ القرضاوي في هذا المعنى "القرآن وحدة لا تتجزأ وتعاليمه وأحكامه مترابطة متكاملة، بين بعضها البعض ما يشبه الوحدة العضوية بين أعضاء الجسم الواحد، فبعضها يؤثر في بعض ولا يجوز أن ينفصل جزء أو أكثر منها عن سائر الأجزاء، فالعقيدة تغذي العبادة، والعبادة تغذي الأخلاق، وكلها تغذي الجانب العملي والتشريعي في الحياة".(قرضاوي، 2001/ ب : 519)

"إن جمع الآيات القرآنية موضوعياً، وتحديد دلالات الألفاظ القرآنية من خلال النظرة الكلية الجامعة يؤدي إلى تصحيح كثير من القواعد والقوانين والأحكام الكلية التي قال بها أصحاب الفنون العلمية المختلفة في الدراسات الدينية واللغوية جميعاً".(سعيد،1986: 53-54)

ولعلماء المسلمين السابقين أقوال جميلة حول هذا الموضوع وإن لم تظهر جلية في جهودهم العلمية في مجال تفسير القرآن الكريم فقد ورد لدى الباقلاني (403هـ) قوله "أنظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة... ، ثم فيما ينتظم من الكلمات ثم إلى أن يتكامل فصلاً وقصة، أو يتم حديثاً وسورة، لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، فلم يدَع ما ادعيناه لبعضه ولم نصف ما وصفناه إلا في كله".(الباقلاني،1951: 228) ويذكر السنباطي عن ابن القيم الجوزية(751هـ)كلاماً بين أنه أحد رواد مجال الدعوة إلى التفسير الموضوعي فيقول: "إن ابن القيم رائد المدرسة الحديثة التي تهتم بأن تقدم أمام تفسير السورة الإطار العام للأهداف السامية التي جاءت السورة لتعالجها، وتمثل الروح الذي يسري في كيان السورة فتربط بين أجزائها ويجعل كل جزء فيها خادماً للآخر ومخدوماً فيه ، في سبيل تحقيق الرسالة العظمى التي قصدت من السورة أن تؤديها" (السنباطي،1980: 92) ، وتوجه إلى هذا المنحى أيضاً العديد من علماء التفسير مثل الرازي(606هـ) ، والشاطبي (790هـ) ، والفيروز أبادي (817هـ) ، وأبو بكر السيوطي (911هـ) جميعهم قد سبقوا المحدثين في المناداة إلى التوجه نحو التفسير الموضوعي الذي ينظر إلى السورة وحدة واحدة(الدغامين، 1995: 96-104). وفي هذا المجال يقول دراز: "إن هذه المعاني تتسق في السورة كما تتسق الحجرات في البناء، لا بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي في أنفسهما كما يلتقي العظمان عند المفصل ومن فوقها تمتد

شبكة من الوشائج تحيط بهما عن كثب ، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب، ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي بمجموعها غرضاً خاصاً ، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية".(دراز،1980: 155)

"إن النظام الذي اشتملت عليه السورة لا يقل دقة وإحكاماً عن النظام الذي يسير عليه الكون ، وقد ظهر اليوم بعد جديد للتحدي بسورة من مثله،إذ لا يتوقف ذلك على مجرد دقة النظم في السورة من جزالة في أسلوبها وفصاحة في ألفاظها وجمالها في تركيبتها...بل كذلك في وحدة في موضوعها".(الدغامين،1995: 115)

لقد حرص القرآن الكريم على أن تكون قراءته موضوعية منظومية فنجد أنه طرح نفسه على أنه كتاب كلي بلا تجزئة، وهذا واضح في النصوص العديدة، قال تعالى ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾، وقال تعالى﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ وفي نفس الوقت نهى عن القراءة العضينية، وهي القراءة الجزئية التجزيئية فقال تعالى ﴿الَّذِينَ جَعَلُواْ الْقُرْآنَ عِضِينَ * فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الحجر:91) ، وعضين مشتقة من التعضية والتفريق، يقول الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب "عضيت الشيء إذا فرقته وفي الحديث لا تعضية في ميراث إلا فيما احتمل القسمة أي لا تجزئة فيما لا يحتمل القسمة كالجوهرة والسيف فقوله (جعلوا القرآن عضين) يريد جزأوه أجزاء" (الرازي،2000 :169/19)، وقد جاء في الكشاف للزمخشري "عضين: أجزاء جمع عضية وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء" (الزمخشري،1977 :298/2). وقد ذم القرآن الكريم بني إسرائيل لإتباعهم المنهج التجزيئي في عرض ما أنزل الله على سيدنا موسى وجعله أوراقاً وقراطيس يعرضون منها ما يشاؤون ويخفون ما يشاؤون ووصفهم بأنهم في هذا الشأن يخوضون ويلعبون قال تعالى﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُواْ أَنتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (سورة الأنعام:91). إذن فهذا هو المنهج الخطي التجزيئي في بناء المعرفة وعرضها، وهو منهج مرفوض في القرآن الكريم ومذموم، وبالطبع فإننا لا نقلل من أهمية المعرفة الجزئية والتي هي في الغالب منظومات جزئية ولكن المهم أن نضع بعين الاعتبار أهمية ما بين هذه الأجزاء من علاقات وروابط تجعل منها منظومات كبرى ونظريات شمولية تعالج مختلف جوانب الحياة. وهنا لا بد

من التركيز على المنظومية كمنهجية بنائية في التعامل مع المعرفة وهي عكس المنهجية التجزيئية التي تحول المعرفة إلى ركام غير متجانس لا يتصل بعضه ببعض، وبوساطة المنظومية يتم تحويل الكم المعلوماتي مهما عظم إلى معرفة نوعية، أنظر إلى أحد مواقف القرآن كيف يستخدم المنظومية في بناء الشخصية الإسلامية المتكاملة وأمثلة ذلك كثيرة قال تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الألْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة آل عمرن:191). إن هذه الآيات توضح ملامح الشخصية الإسلامية من فكر وذكر والقائمة على كم هائل من المعلومات يقرؤها الإنسان على صفحة الوجود الواسع بسماواته وأرضه وليله ونهاره وصور الإبداع والإتقان التي ينطق بها كل ذلك وحكمة خلقه، فبعض المعلومات تتعلق بطبيعة هذا الكون وما فيه من ظواهر تبهر العقل الإنساني وبعضها يتعلق بعظمة الخالق وصفات كماله وبعضها يتعلق بنواميس الخلق وسنن الوجود وبعضها يتعلق بالحق والباطل والاختلاف والاتفاق والقيام والقعود والتفكر الفاعل لأولي الألباب والتفكر الخامل الذي لا يصل إلى شيء ، وكل ذلك يصب في إدراك العلاقة الخالقية وحكمة الخالق والبعث والجزاء قال تعالى﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (سورة آل عمرن:191) ويمكن تلخيص كل ذلك بنموذج يبين هذه العلاقات.

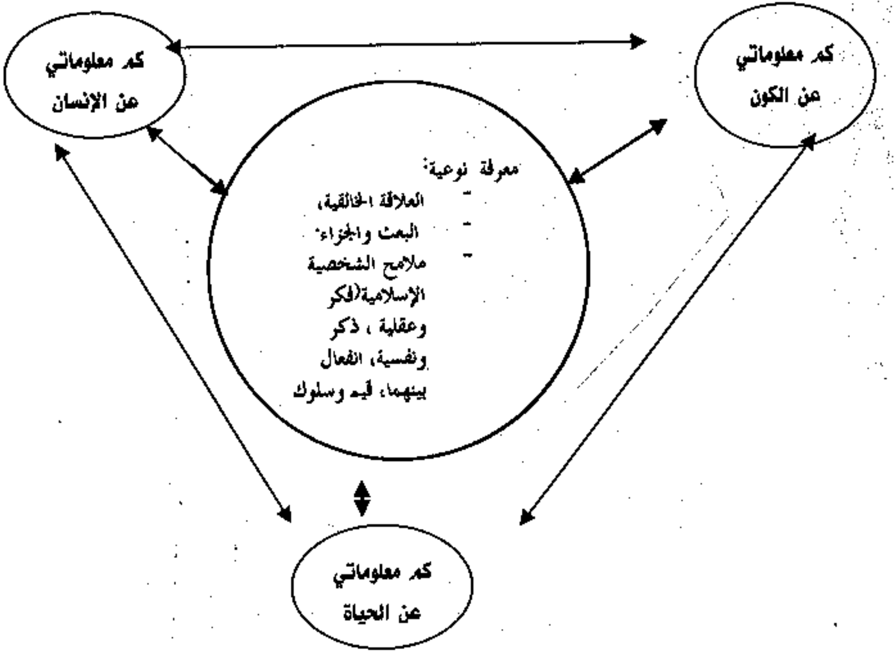
كم معلوماتي عن الإنسان
كم معلوماتي عن الكون
معرفة نوعية:
- العلاقة الخالقية،
- البعث والجزاء،
- ملامح الشخصية الإسلامية(فكر وعقلية ، ذكر ونفسية، الفعال بينهما، قيم وسلوك
كم معلوماتي عن الحياة

إن أي قراءة للقرآن الكريم لا تقوم على المنظومية توقع الإنسان في أحابيل مزاجيته وشخصانيته، ففي الآيات السابقة إذا فصل الإنسان بين الذكر وهو عبادة وسلوك وبين الفكر وهو عقلية، أو فصل بين الخلق والخالق إنما يهدم بذلك البناء المعرفي القرآني، ويهدم بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة، ويحول المعرفة القرآنية إلى كم من المعلومات لا قيمة له ولا أثر، إن النظم القرآني البنائي جعل التفكير عبادة وجعل من النظر في ملكوت السماوات والأرض عبادة، كما جعل من الذكر عبادة وجعل من العمل الصالح عبادة، وقد انفرد القرآن الكريم بهذا المنهج، فهو "منهج عملي يتضمن الأصول الموجهة لحياة الفرد وعلاقته بالرب سبحانه وعلاقته بالكون والحياة من حوله وعلاقته بأسرته وجيرانه ومجتمعه وعلاقته بأمته وعلاقته بالمسلمين وغير المسلمين". (قرضاوي، 2001/ب: 489).

إن المنهج التجزيئي يتناول النص بدون افتراضات أو طروحات مسبقة يكون دور الدارس الإصغاء والتفهم فقط، بينما المنهج الموضوعي يقوم على المنظومية، يبدأ من واقع الحياة فيركز على موضوع من موضوعات الحياة عقائدية ، واجتماعية، وكونية ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وما قدمه الفكر الإنساني من حلول وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ ثم يأخذ النص القرآني كأحد منظومات القرآن الكريم حواراً مع القرآن كله وليست استجابة سلبية كما هو الحال في المنهج الخطي بل استجابة فعالة وفهماً وتوظيفاً هادفاً للنص القرآني على ضوء موقعه في القرآن كله في سبيل الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة الكبرى. فالمنظومية في هذا المجال تعمل كآلية لضبط وتنظيم وتناغم العلاقات بين المنظومات المختلفة وتصنع التوازن بين المنظومات مهما تناهت في صغرها أو تعاظمت في كبرها. إن المعرفة الحقيقية التي دعى إليها القرآن لا بد أن تنهض على شرط أساس هام لفت القرآن النظر إليه وهو معرفة كلية صحيحة لأركان الوجود (الإنسان والكون والحياة) ووجه العلاقة فيما بينها وما قبلها وما بعدها.

وهكذا يتمثل الوجود الكوني كله أمام بصيرة من أقبل على هداية القرآن، وتأمل بياناته، وإرشاداته، فاتحاً له عين قلبه، معرضاً عن مشوشات عصبيته وأغراضه ، وعندئذ لا بد أن يزول الاضطراب عن النفس ، وتشيع في مكانه الطمأنينة والسكينة، ولا عليه بعد ذلك أن يبدأ فيتعمق فيما يشاء أن يتعمق في علمه، من الجوانب والأجزاء التي يجب أن يتعمق في معرفتها، أو أن يتخصص بدرايتها ، فإنه لن يضيع عندئذ في المتاهات، ولن يخدع منها بألوان الطيف المنبعثة من تكسر تلك الأجزاء أو انفصالها عن الكل المتقومة به ، بل سيكون له من الخارطة الكلية التي كشفت عنها

بصيرته ، ما يخرجه من المتاهات ويرده عن الضلالات، ولسوف يدفعه فهمه الكلي السابق لحجم البيان الكوني وتركيبه الإجمالي، إلى الربط بين الجوانب والأجزاء التي قد تبدو له أنها مستقلة بعضها عن بعض، بل ستبصره تلك المعرفة الكلية السابقة بشرايين التفاعل السارية فيما بينها. أي أن صاحب هذه البصيرة الكلية، لا يمكن أن يطاوعه عقله، على دراسة التاريخ أو التاريخ الطبيعي مثلاً، بمعزل عن بقية العلوم بحقيقة الكون والإنسان والحياة، ولا على دراسة النشأة الإنسانية وتطورها، بمعزل عن التأمل في النشأة الكونية في مجموعها والنظر في وجود الله وخالقيته للكون، كما لا يمكن أن يطاوعه عقله على دراسة الشريعة الإسلامية من حيث هي قانون ، للمقارنة، والنقد، دون أن يدرس شيئاً كافياً عن سيرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحياته الشخصية من المصادر العلمية الأصلية ودون أن يتعرف على حقيقة القرآن وسماته.(البوطي،1998 :127-128).

إن البناء المعرفي القرآني حين يتعامل مع (الكون والإنسان والحياة) كمصادر للمعرفة يتعامل معها كمنظومة تتكون من منظومات فرعية لكل خصائصها وعلاقاتها تتشكل فيها هويتها وتتفاعل مع بعضها البعض لتشكل هوية هذا الوجود وفيما يلي استعراض لمجمل خصائص كل من منظومات الإنسان والكون والحياة وكيف قام القرآن بتشكيل هوية كل منها على حده وهويتها معا وسنقف من خلالها على منهجيته في ذلك.

رابعاً: منهج القرآن الكريم في البناء المعرفي من خلال منظومة الكون والإنسان والحياة

1. منظومة الكون والإنسان والحياة

إن النظر في منظومة الكون والإنسان والحياة تكشف أمرين هامين أولهما العلاقة الخالقية أي أن هذه المنظومة مخلوقة لخالق أبدعها ونظمها وهو يدبرها قال تعالى﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ (الأعراف:54) ، والأمر الثاني هو علاقة الاستخلاف والاستعمار والتسخير، أي أن الخالق الذي خلق الوجود وأتقنه ويقوم على تدبيره جعله مسخراً ومستعمراً لخليفة استخلفه في الأرض ليقوم بإعمارها وإصلاحها والنائي بها عن كل ما يفسدها. وهذا واضح في الخطاب القرآني للإنسان من حيث أنه جعل الإنسان هو المسؤول المباشر عن الكشف عن هذين الجانبين المهمين واللذين يمتزجان معاً ولا ينفصلان. فالكشف عن العلاقة الخالقية دون إدراك علاقة الإنسان بالوجود يقود الإنسان إلى متاهات وانحرافات تؤدي به إلى الضلال والوقوع في شباك

الشعوذات والأوهام والقعود عن العمل وإلغاء دور الإنسان في تعمير الأرض وإذا أدرك علاقته بالوجود المادي دون العلاقة الخالقية نقله إلى دوامة عبادة المادة وما يترتب عليها من جشع وظلم ، إن علاقة الإنسان بالكون أن يتأمله وينظر فيه ليهتدي به إلى خالقه ومبدعه قال تعالى ﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (يونس:101) ، وقال تعالى﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ﴾(الأعراف:185) ، إنها علاقة الخليفة بما استخلف فيه وما سخر له، فهذا الكون علويه وسفليه سخر للإنسان ليستخدمه وينتفع به، ويعمر أرضه، ويحكم فيه بالحق والعدل، قال تعالى﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ﴾ (الجاثية:13) ، وقال تعالى﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان:20) ، وقال تعالى﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:30) ، وقال تعالى﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (هود:61) ، ولا يجوز في منطق القرآن أن ينقلب الكون الذي هو مسخر للإنسان إلى إله معبود للإنسان،كما فعلت الوثنيات المختلفة،التي قلبت الحقائق وأضلت الإنسان عن سواء السبيل ، وعلاقة الإنسان بالحياة أن يتخذها مزرعة للحياة الأخرى،وأن يستمتع بطيباتها دون أن يجعلها له غاية ، وأن يعمل لدنياه كأنه يعيش فيها أبداً،ويعمل لأخرته كأنه يموت غداً،فذا يجمع بين الحسنيين،ويسعد في الدارين ، قال تعالى﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف:32) ، وقال تعالى﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ (الملك:15) ، وقال تعالى﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (البقرة:201) ، وقال تعالى﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ).(القصص:77) (قرضاوي،2001/ب :490).

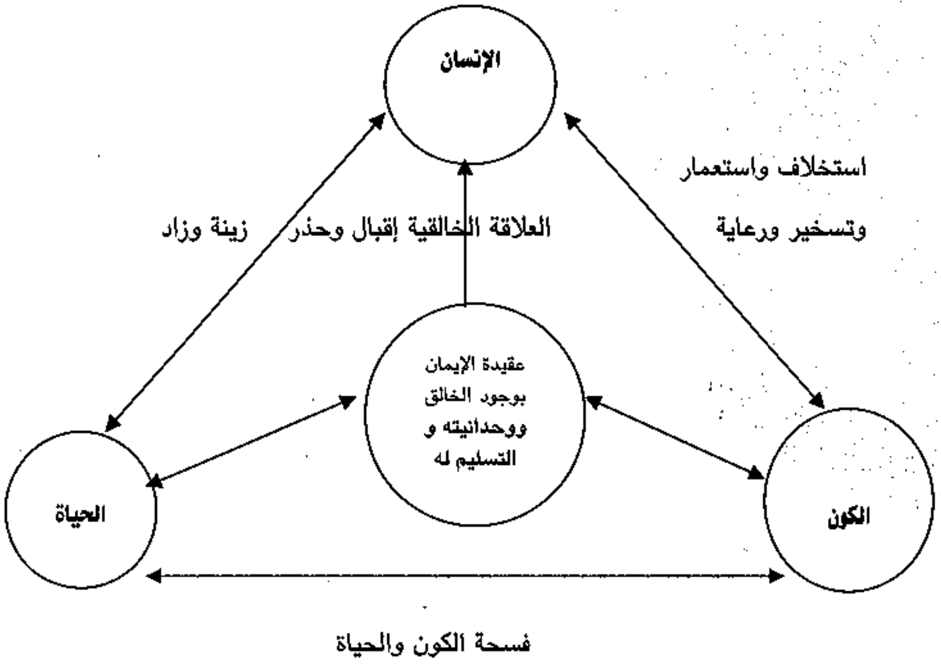
الإنسان
استخلاف واستعمار
وتسخير ورعاية
العلاقة الخالقية إقبال وحذر
زينة وزاد
عقيدة الإيمان بوجود الخالق ووحدانيته و التسليم له
الحياة
الكون
فسحة الكون والحياة

هوية منظومة الكون والإنسان والحياة

إن أهم ما يلفت القرآن نظرنا إليه من حقيقة المكونات المحيطة بنا، هو أنها لسان ناطق وبيان قاطع، ينادي نداءً يفهمه كل ذي عقل وفكر، بأن هذا الكون من صنع صانع وتدبير مدبر،فهو عنوان جليّ بارز على وجود هذا الخالق ووحّدانيته وعلى أنه متصف بمقتضى ذلك بسائر صفات الكمال مبرأ عن جميع صفات النقصان.(البوطي:،1998: 82)

لقد أقام القرآن الكريم البراهين على وجود الله تعالى،من خلق الكون ومن خلق الإنسان وناقش الجاحدين بالحجج المقنعة والمفحمة قال تعالى﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُواْ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بل لا يوقنون﴾ (الطور:35-36) ، وقال تعالى﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ

* تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ (ق:6-8) ، وقال تعالى﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الألْبَابِ﴾.(آل عمران:190)

ومن ثم تناول القرآن عناصر منظومة الكون والإنسان والحياة بالتفصيل بين فيها خصائص كل عنصر وشكل هويته التي تتفق مع خصائصه كمنظومة من جهة ومع هوية الوحدة الموجودة من جهة أخرى، وفيما يلي استعراض لكل عنصر وكيف شكل القرآن الكريم هوية ذلك العنصر.

2. منظومة الإنسان وهويته

لفت القرآن الكريم نظر الإنسان إلى جانبين متباعدين ضمن ذاته وكيانه، موضحاً له أن التكامل الحقيقي لجوهر الإنسان وكينونته،إنما يتم بتلاقي هذين الجانبين وتمازجهما.

الجانب الأول: أنه مخلوق من مادة تافهة شائعة غير نفيسة هي التراب وسلالته من ماء مهين والشأن فيه إن طالت به الحياة أن يعود إلى أرذل العمر. قال تعالى﴿فَلْيَنظُرِ الإنسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾(الطارق:5-7)، وقال تعالى(قُتِلَ الإنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ *ثم أماته فاقبره﴾(عبس:17-21) ، وقال تعالى﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الدهر:2) ، وقال تعالى﴿أَوَلَمْ يَرَ الإنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ (يسن:77) ، وقال تعالى ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً﴾.(الحج:5)

الجانب الثاني: الذي يشكل هوية الإنسان أنه مخلوق مكرم، فهو نفخة من روح الله ومنذ اللحظة الأولى لخلقه كرمه الله بسجود الملائكة له، وبالعلم فضله عليهم، وشرفه بالخلافة في الأرض مظهراً لعدالة الله تعالى وحكمه، وأهله لذلك فمنحه القدرة على العقل والتفكير ومنحه الإرادة والقوة وسخر له المكونات من حوله. قال تعالى﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ اني خالق بشراً من صلصال من حماء مسنون*فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾(سورة الحجر:28-29) ، وقال

أيضاً ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ (سورة الإسراء:7)، وقال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(سورة البقرة:30) ، وقال تعالى﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (سورة البقرة:32) ، وقال تعالى﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (سورة العلق:5) ، وقال تعالى﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾.(سورة الأحزاب:72). (البوطي، 1998 :44)

ويمكن توضيح هذه الخصائص على شكل منظومة تعبر عن شكل هوية الإنسان

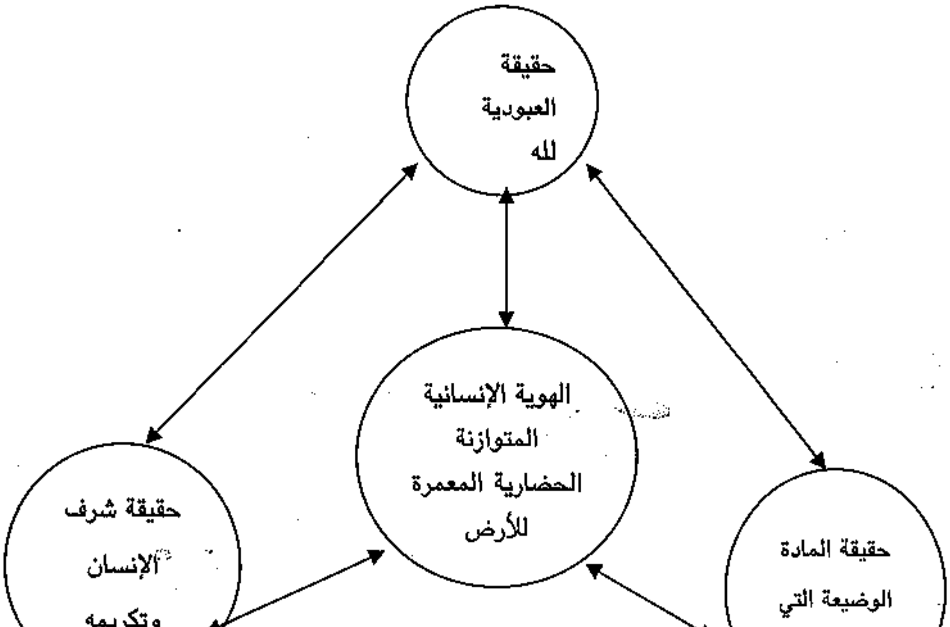
حقيقة العبودية لله
الهوية الإنسانية المتوازنة الحضارية المعمرة للأرض
حقيقة شرف الإنسان وتكريمه
حقيقة المادة الوضيعة التي خلق منها

منظومة هوية الإنسان

مدخلات

1) أصل الخلق(مهين ووضيع) من تراب،ماء مهين،من نطفة ويرد إلى أرذل العمر.
2) مخلوق مكرم منح العقل والإرادة، استخلف في الأرض سجد له الملائكة أجمعون، سخر له ما في الأرض والسماء جميعاً.
3) مخلوق لعبادة الله والخضوع له.

عمليات:

- التنبيه إلى حالتي الضعف والتكريم.
- المواءمة بينهما وبين صفة العبودية لله.

المخرجات

1) إنسان مؤمن بالله مخلص العبادة له .
2) إنسان مؤهل لاستعمار هذا الكون.
3) إنسان متزن يدرك جوانب الضعف في تكوينه ولا يضعف ولا يستهين ويدرك جوانب قوته وتميزه ولا يطغى ولا يتجبر.

التغذية الراجعة

يتذكر دائماً أنه ضعيف أمام الله وأنه عبدٌ لله وأنه مكرم من الله سامٍ بروح الله. وما قصة موسى عليه السلام مع فرعون وغيرها من القصص إلا لاستخراج العبر في هذا المجال، فانظر كيف لا يميز الله بين المتكبر والمستضعف في قوله تعالى ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ)(الشعراء:44)، وفي قوله تعالى(فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً فَاسِقِينَ﴾ (الزخرف: 54-55) . ففي الحالتين تاه الطرفان القوي والمستضعف عن هويته الإنسانية وخصائصه البشرية فتأله الأقوياء وذل الضعفاء، فهذا فرعون قد أدرك ما فيه من مزايا وصفات تخوله بسط سلطانه وتسلطه وجبروته على الناس وتحويل الواقع الذي يدعمه ويعيشه مع الناس إلى مطلق، إلى اله، إلى مثل أعلى لا يمكن تجاوزه وحبس الأمة كلها في إطاره وجعل حاضرها هو مستقبلها وحجب أنظارها عن مثل أعلى غيره ينقلها من الحاضر السيء إلى مستقبل آخر، بذلك فقد نسي الطرف القوي هويته كإنسان وأغمض عينيه عن كونه مخلوقاً ضعيفاً فتسلط وتجبر. أما الطرف الآخر وهو الطرف الذي غفل عن جانب التكريم في

هويته فاستكان لحكم الفراعنة والطواغيت وتقوقع في حاضره وفي هذين السبيلين يتحقق الإفساد في الأرض ولا تستقيم الحياة إلا إذا رجع كل طرف إلى حدود إنسانيته وأدرك حقيقة هويته.

وخلاصة القول

إن دور القرآن الكريم وهو يخاطب الإنسان ويبين له حقيقة نفسه واتصافه بالضعف والقوة والمهانة والعزة إنما يربي في الإنسان أحاسيسه ومشاعره ووجدانه ، وهويته الإنسانية الصادقة، فلا يتصرف إلا بوحي من هذه الهوية التي آمن بها أتم ما يكون الإيمان، ثم هيمنت على عواطفه ودوافعه السلوكية في سائر التقلبات والأحوال، ولا بد أن تقيه هذه التربية القرآنية عندئذ عن الشرود إلى أي تطرف أو جنوح ذات اليمين أو ذات اليسار، فلا هو يركن إلى الخنوع والذل للآخرين مهما تجمعت عليه أسباب الضعف أو مظاهر الفقر والهوان، ولا هو يطمع إلى شيء من التسلط والبغي والطغيان، مهما أتيح له من أسباب وتفتحت أمامه سبلها، وما أدركت أمة هذه التربية القرآنية إلا وارتفع المستضعفون فيها عن مناخ الذل الذي كان يشدهم إليه، ونزل المستكبرون منهم عن عروش تسلطهم وطغيانهم وتلاقوا جميعاً على سبيل معتدل من التآخي والتعاون ابتغاء عمارة الأرض. (البوطي، 1998: 47-48)، إن نهضة الإنسان وبناءه المعرفي يعتمد على إدراكه لذاته وخصائصها بشكل دقيق سليم ولا تحقق هذه المعرفة بناء معرفة سليمة إلا إذا كانت مبنية على حقيقة العلاقة بينه وبين خالقه، علاقة التوحيد المطلق لذات الله ، وكمال صفاته، وهذا ما سعى إلى بيانه القرآن الكريم.

منظومة الكون وهويته

المقصود بالكون جميع الظواهر الكونية التي نراها حولنا من مواد وأجرام سماوية ونواميس طبيعية وكائنات حية، باستثناء الإنسان، وقد أسهب القرآن الكريم في الحديث والبيان عن هذه المنظومة الكونية باستعراض عناصرها وما بينها من علاقات وما ينتظمها من مفاهيم، وعن وجه التكامل والتناسق بينها، وعن علاقة الإنسان بذلك كله، وأبرز ما لفت القرآن الكريم الأنظار إليه حول هذه المكونات، أنها محل نظر وتفكير وعقل، كما أنها بما تظهره من علاقات ومفاهيم بينية تكشف عن العلاقة الخالقية اليقينية بينها وبين الخالق جل وعلا، وجعلت من ذلك محوراً تدور حوله جميع المكونات وجميع النواميس والأنظمة، ثم سخرت هذه المكونات للإنسان لينهض بمسؤولية الاستخلاف في الأرض واعمارها، وحتى لا تكون هذه المكونات

محط إعجاب ووسائل خادعة رسم لنا القرآن مخططاً معرفياً يقوم على بيان مظاهرها الأخاذة الخادعة فيحذرنا من الانخداع بها والركون إليها، وفي المقابل أظهر أهميتها لإقامة أسباب عيشنا وبناء مجتمعنا، ونهى عن الإعراض عنها أو التحرج من التمتع بها. هذا المخطط المتكامل المتناسق تشرحه الآيات القرآنية بكل وضوح وتلفت النظر إليه، قال تعالى﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ * وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ * وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ ايَاتِهَا مُعْرِضُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾(سورة الأنبياء:30-31)، وقال أيضا﴿قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)(سورة يونس:103) ، وقال أيضاً ﴿إِنَّ اللّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ * فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأنعام:95-97)

وكل هذه المكونات مسخر للإنسان خاضع لتصرفه فقد لفت القرآن الأنظار إلى أن جُل هذه المكونات قابلة للتغيير والتطوير وفق النواميس التي خلقها الله وحسبما تقتضيه وظيفة الإنسان في الأرض من استخلاف وتعمير قال تعالى﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (سورة لقمان:20) ، وقال أيضاً﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ (سورة النحل: 10-13) ، وقال أيضاً(هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(سورة الملك: 15)، وقال أيضاً﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (سورة الأعراف:10).

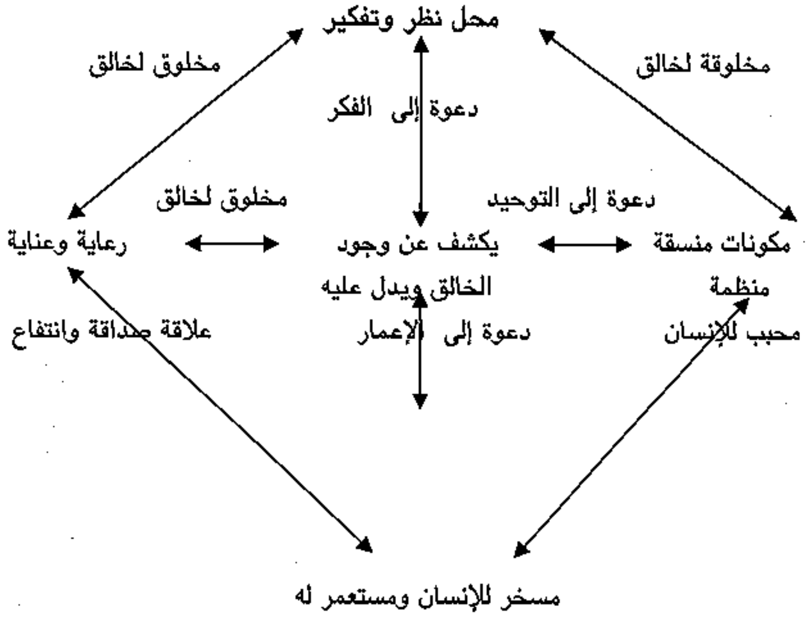
محل نظر وتفكير
مخلوقة لخالق
مخلوق لخالق
دعوة إلى الفكر
دعوة إلى التوحيد
مخلوق لخالق
مكونات منسقة منظمة
يكشف عن وجود الخالق ويدل عليه
رعاية وعناية
محبب للإنسان
دعوة إلى الإعمار
علاقة صداقة وانتفاع
مسخر للإنسان ومستعمر له

منظومة الكون وهويته

وفي نطاق استخلاف الإنسان في الأرض واستعماره فيها جعل الله كل المكونات التي حوله وسائل زينة ومتاع، فقد زين بعضها ببعض، خلق السموات ومنها السماء الدنيا وزينها بالكواكب، وخلق الأرض وجعل ما عليها زينة لها قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (سورة الحجر:16)، وقال أيضاً ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ (سورة ق:6)، وقال أيضاً ﴿ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً﴾ (سورة فصلت:12) وهيأ للإنسان من أصناف الزينة ما يتزين به في حله وترحاله وذللها له يتمتع منها بما يشاء وشده إلى ذلك ورغبة فيه، وفي ذك إعمار للأرض وإصلاح، وفي ذلك ابتلاء للإنسان واختبار لأفعاله، يقول الله في تزيين الأرض ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف :7)، ويقول أيضاً ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل:8)، وقال أيضاً ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ

وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (سورة النحل : 5-6). ولكن استخدام هذه المكونات والانتفاع بها يجب أن يكون وفق معايير موضوعية متوازنة، فحذر الإنسان من التسليم والخنوع لهذه المتع والانشغال بها عن مهماته الأساسية من عبادة وإعداد لليوم الآخر، فدعاه إلى التمتع بتوازن يكفل التوفيق بين هدفين هامين هدف إعمار الأرض وهدف الإعداد للأخرة، لذلك نجد أن معظم النصوص التي ذكرت الزينة ووسائلها والمتع وأشكالها ذكّرت باليوم الأخر وعلو منزلته على هذه الدنيا، ودعت إلى عدم الاغترار بزينة الحياة الدنيا وإلى الالتفات إلى الآخرة ونعيمها الخالد. قال تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ (سورة الكهف:46)، وقال أيضاً ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (سورةالقصص : 60) وقال أيضاً ﴿يَابَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الأعراف : 31-32). وقال أيضاً ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(سورة آل عمران: 14-15) ، وقال تعالى﴿لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾(سورة آل عمران: 196-197)

إن منظومة الكون وهي تكشف عن علاقتها بخالقها وأنها ذليلة مقهورة أمام قدرة الله المطلقة يصرفها كما يشاء ويسخرها للإنسان يستثمرها وينتفع بها بشكل يتناسب مع مهمته في الأرض واستخلافه فيها، تدعو الإنسان إلى أن يتعامل معها تعامل رعاية وانتفاع وفق ما أراد الله لها وللإنسان معاً، وإذا تجاوز الإنسان حدود هذا المفهوم، سواء كان بالتمحور حول هذه المكونات اعجاباً واستغلالاً مطلقاً دون قيود يؤدي بالتالي إلى الانحراف نحو تقديس المادة أو كان اعراضاً من الإنسان عن استثمارها والقعود عن القيام بدوره في اعمار الأرض، فذلك كله خروج عن طبيعة الكون وطبيعة الإنسان التي هيأها الله. إذن فلا بد من التعامل مع هذه المكونات

كمنظومة ذات علاقات بالخالق والإنسان معاً، تقوم على العبودية المطلقة لله تعالى وعلى التوازن بين التسخير والانتفاع والاستمتاع في الحياة الدنيا والتزود للآخرة.

منظومة الحياة وهويتها

بين الخطاب القرآني أن الحياة حياتان الأولى هي الحياة الدنيا والتي تشكل البعد الزمني الذي تنبسط على مساحته كينونة الإنسان وبقاؤه متمتعاً بحياته وفكره، والثانية هي الحياة الآخرة وربط بينهما بشكل متلازم حتى لا تكاد تذكر الأولى إلا وذكرت الآخرة. وقد كشفت النصوص القرآنية عن أن الحياة الأولى تتصف بالتفاهة والقصر والزوال كما أنها لهو ومتع زائلة بينما الحياة الآخرة خالدة وفيها نعيم للمؤمنين المتقين لا ينقضي، كما فيها عذاب للكافرين والمفسدين في الأرض لا ينتهي، وقد حفل القرآن الكريم بالآيات التي تبين تفاهة وحقارة الحياة الدنيا بالرغم من زينتها وزخرفها ومغرياتها، كما تبين قداسة الحياة الآخرة ودوامها، والتي لا يفتأ القرآن يكرر وصفها ويؤكد على مدى أهميتها كي يوجه الإنسان إليها ويجعل منها هدفا له ، ثم تناول القرآن في بنائه المعرفي للحياة الدنيا، جانباً آخر على قدر كبير من الأهمية وهو قداسة هذه الحياة، فبالرغم من تفاهتها فهي الساحة الممتدة التي يتم من خلال نشاطاتها استعمار هذا الكون واستثماره وإصلاحه، لذلك كانت هذه الحياة طيبة ذات قيمة وجديرة أن يحافظ عليها الإنسان ويحسن استثمارها، ولا يزج بها في المخاطر والمهالك، فهي معبر إلى الحياة الآخرة ، والإنسان إنما يأخذ من الدنيا إلى الآخرة حصيلة كسبه وأعماله لينال عليها الجزاء الأوفى،إن خيراً فخير وإن شراً فشر،والحياة الدنيا قصيرة تقوم بين موتين ثم تليها الحياة الدائمة التي لا انقضاء لها والتي يبدو جلياً إلى جنبها تفاهة هذه الحياة وعدم أهميتها.(البوطي،1998: 61)

هذه المعاني جميعها واضحة في النصوص القرآنية التي تتحدث عن الحياتين،قال تعالى﴿اعلَمُواْ أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:20) ، وقال تعالى﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ (الكهف:45) ، وقال تعالى ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت:64) ،

وقال تعالى﴿**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُواْ فِي الْبِلاَدِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ (آل عمران:196-197)، وقال تعالى ﴿**قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً**﴾(النساء:77)، وقال تعالى﴿**وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**﴾ (الأعراف:24) ،وقال تعالى﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنسَانَ لَكَفُورٌ**﴾ (الحج:66) ، وقال تعالى﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾ (العنكبوت:57)

لقد رفع الله تعالى من قيمة الحياة الدنيا كوعاء يفرغ فيه الإنسان كل إنجازاته وأعمال الإعمار للأرض ووضعها في إطار من القداسة والرعاية والأهمية حتى انه عد إحياء إنسان واحد كإحياء الناس جميعاً قال تعالى ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً**﴾ (سورة المائدة:32)، وقال أيضاً ﴿**وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً**﴾(سورة النساء:93)، وقال أيضاً ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَأُولِي الأَلْبَابِ**﴾(البقرة:179) ورخص حين تهددها الحوالك حمايتها بكل وسيلة حتى لو اضطر إلى النطق بكلمة الكفر والقلب مطمئن بالإيمان ، قال تعالى﴿**مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾(سورة النحل:106) ، ووضع القرآن معياراً لصحة مسيرة الإنسان عبر هذه الحياة وهو الصلاح والخير ووعده بالحياة الطيبة في الدنيا والجزاء الأحسن في الآخرة أما إذا أساء استخدام هذه الحياة الدنيا فله عذاب الهون في الآخرة وفي هذا يقول الله تعالى ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ (سورة النحل:97)، وقال أيضاً(**وَلاَ تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ**﴾.(سورة القصص:77) .

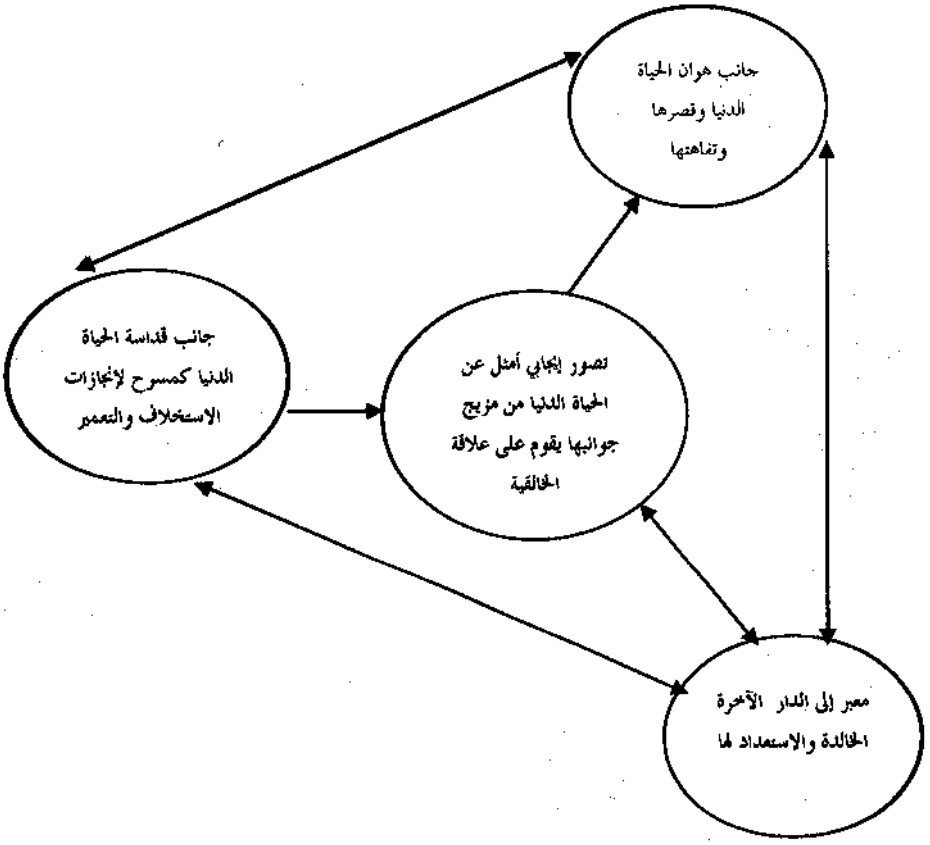
جانب هوان الحياة الدنيا وقصرها وتفاهتها
جانب قداسة الحياة الدنيا كمسرح لإنجازات الاستخلاف والتعمير
تصور إيجابي أمثل عن الحياة الدنيا من مزيج جوانبها يقوم على علاقة الخالقية
معبر إلى الدار الآخرة الخالدة والاستعداد لها

قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾. (الأحقاف:20)

لذلك حرص الخطاب الإلهي على أن يشبع فكر الإنسان وعواطفه بمزيج مكافئ متوازن من هاتين الصفتين للمكونات الدنيوية التي يزخر بها الوجود من حوله خاصة وأنه أميل لحبها والتمتع بها قال تعالى﴿كَلاَّ بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ * وَتَذَرُونَ الآخِرَةَ﴾ (سورة القيامة: 20-21)، فهو يحدثه دائما عن تفاهة الدنيا ويحذره من الإغترار والانخداع بها،ويلفت نظره إلى ما هو خير وأبقى إلى نعيم الآخرة الذي لايزول وفي

الوقت نفسه يبقى يحدثه عن ضرورة استثمارها واستخدامها في عمارة الأرض وترسيخ الحضارة الإنسانية الراقية فيها.

الخاتمة والتوصيات

سعى هذا البحث إلى إبراز عدد من الجوانب التي راعاها القرآن الكريم في بناء منظومة المعرفة الإنسانية وفيما يلي خلاصة لما توصل إليه البحث في هذا الشأن :

1- عمل البحث على إبراز الحاجة الماسة لإعادة قراءة القرآن الكريم على أساس موضوعي توحيدي يلتحم فيه القرآن الكريم مع واقع الحياة بحيث تبدأ عملية القراءة من الواقع وتنتهي بالقرآن بوصفه القيم والمصدر الذي يحدد على ضوئه الاتجاهات الربانية بالنسبة إلى ذلك الواقع فتصبح التجربة البشرية موضع الدرس القرآني والتأمل القرآني الذي يؤدي بالتالي إلى فهم صحيح. والوصول إلى نظريات قرآنية بخصوص تلك التجربة، خاصة وأن المسلمين يواجهون اليوم نظريات كثيرة أنتجها الغرب في مختلف مجالات الحياة فأصبح من الضروري تحديد موقف القرآن من هذه النظريات واكتشاف نظريات قرآنية تعالج نفس هذه المواضيع. والذي لا بد من تأكيده في هذا المقام هو أن القرآن الكريم لم يطرح نفسه بديلاً عن قدرة الإنسان الخلاقة ومواهبه وقابلياته وإبداعاته في كل ميادين الحياة بما في ذلك ميدان المعرفة، وإنما طرح نفسه كتاب هداية وطاقة روحية موجهة للإنسان ومحركة له في المسار الصحيح وليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

2- إن القرآن الكريم وهو يستقرئ موضوعات الكون والإنسان والحياة بطريقة منظومية موضوعية ليبلور موقفاً نظرياً نحوها لا يستغنى عن القراءة التجزيئية التي تحدد مدلولات الآيات التي يتعامل معها ضمن إطار الموضوع الذي يبحثه إلا أن القراءة التجزيئية لا تخرج عن كونها تبدأ من القرآن الكريم وتنتهي في القرآن الكريم وهدفها تحديد المدلولات وليس بناء النظريات.

3- إن منهج القرآن الكريم المنظومي في بلورته للمفاهيم المتعلقة بجميع الساحات الكونية والتاريخية والاجتماعية رفض النظرة العفوية أو الغيبية الاستسلامية في تفسير الأحداث فلم يقبل بالتفسير على أساس الصدفة أو على أساس القضاء والقدر بل نبه الإنسان إلى دوره الفاعل في استكشاف السنن الكونية والقوانين الحياتية والتحكم فيها كجزء من مهمة الاستخلاف التي أكرمه الله بها. وإن هذا لا يخرجها عن كونها سنن ربانية مضطردة وثابتة مرتبطة بالله وناظمة للوجود

وتمثل قدرة الله، وإرادته وحكمته وتدبيره وحسن تقديره. وهي لا تلغي دور الإنسان ولا تعطل إرادته وحريته واختياره وإنما هي مسخرة له وتؤكد مسؤوليته نحو مهمة الاستخلاف التي أكرمه الله بها والأمانة التي حملها.

4- لقد نبه القرآن الكريم باستمرار في خطابه للإنسان إلى علاقة الوجود (الكون والإنسان والحياة) بالخالق وبين أنها علاقة العبودية الذليلة الخاضعة لسلطان الله تعالى، وأن الوجود كله مقهور بهذه العلاقة ومختبر بها، وبين أن هويته وهوية كل مكون من مكوناته إنما تقوم على هذا التصور وأن على الإنسان أن لا يتصرف إلا بوحي من هذه الهوية، فإذا امتثل لهذه التربية القرآنية والبيان الرباني فإنه يقي نفسه الانحراف والتطرف فلا يركن إلى الخنوع والذل، وإن تجمعت عليه أسباب الضعف، ولا يتوق إلى شيء من التسلط والبغي والطغيان وإن تفتحت أمامه سبله وأتيحت له أسبابه .

5- إن منهجية القرآن الكريم من حيث هي ضوابط الفكر الإنساني ومكون مرجعيتها جعلت مصدر المعرفة الوحي والوجود وجعلت وسائلها العقل والحس معاً، فليس هناك تصورات مادية للوجود تتجاهل خالقه وليس هناك مكونات تتطور بنفسها لتنتج أشكالاً أخرى دون تدخل من خالقها، والمعرفة الناظمة لهذين المصدرين الوحي والوجود تتوجه قبل كل شيء إلى الخالق العالم الخبير الذي علم الإنسان ما لم يعلم واستخلفه في الأرض ليعمرها بالحق والعدل، وهي قادرة على تحديد طرائق إنتاج الأفكار وتوليدها واختبارها، وهي تخرج العقل الإنساني من حالة التوليد الذاتي للمفاهيم القائمة على التأملات والخواطر الانتقائية وتحمله على اكتشاف إطار مرجعي يضبط حركتها، فلا تتناقض ولا تتضاد ولا تتنافى ولا يضرب بعضها بعضاً فتتدرج دوائر الأفكار حولها وتعود إليها.

6- لذلك نجد أن القرآن الكريم اعتنى بالمعلومة واعتنى بالمنهجية معاً فلا يعتد بالمعرفة التي لا تقوم على المنهجية القرآنية، ولا بد للبشرية من أن تستشرف الحقيقة وتقف على منهجية القرآن الكريم وتستقر في معارفها وتنهض بالمسؤولية الإنسانية التي حملها الله إياها.

التوصيات

تستنتج الدراسة من خلال بحثها في منهجية القرآن الكريم في بناء المعرفة الإنسانية أن هذه المنهجية هي منهجية تقوم على الاهتمام بالموضوع بشكل متكامل شمولي منظومي وإن المنظومية هي أساس هذه المنهجية وقاعدتها، ولتفعيل هذا المنحى توصي الدراسة بما يلي:

1. عقد المؤتمرات العلمية المتكررة للحوار حول منهجية القرآن الكريم في بناء المعرفة .
2. دعوة المشتغلين بتفسير القرآن الكريم واستنباط أحكامه إلى الأخذ بالمنحى الموضوعي للتفسير والتوجه إلى بناء النظريات القرآنية حول الخبرات البشرية
3. دعوة الكتاب والباحثين إلى الكتابة حول المعرفة المادية ومخاطرها على مستقبل البشرية والدعوة إلى إعادة بنائها على أساس الوحي والوجود معاً.
4. دعوة المؤسسات التعليمية إلى إدخال أفكار كافية في مناهج التربية الإسلامية حول التفسير الموضوعي وأهميته .
5. إنشاء مؤسسة عالمية إسلامية تمثل مختلف الأطياف لرعاية علوم القرآن الكريم وتفسيره وإصدار مجلة خاصة ترعى الأبحاث العلمية في هذا المجال.
6. دعوة المؤسسات العلمية والمالية في العالم الإسلامي إلى تشجيع البحث العلمي والأبحاث العلمية الخاصة بمنهجية القرآن الكريم وعلومه ورصد الجوائز والمكافآت لذلك.
7. مواصلة البحث العلمي في سبيل كشف المزيد عن منهجية القرآن الكريم وأثرها في بناء الشخصية الإسلامية والأمة الإسلامية والحضارة الإسلامية الراقية.

The Glorious Quran Approach in Constructing Human Knowledge

Mustafa . Hawamdeh, *Department of Sharia , Jarash University, Jarash, Jordan*

Abstract

The research aims at getting acquainted with the Quran's view of the systematic approach and the way to construct human knowledge in the light of this approach. It arrived at the following conclusions:

First: The Quran has calls on using a systematic approach to construct human knowledge based on studying the topic as one unit, with the focus on ties and relations which link the individual elements of this topic on the one hand ,and the elements and the topic, on the other. Thus, the Qura'n presents thoughts and concepts in a comprehensive way taking the universe, man , life and its their relation to the Creator as a source of knowledge . The Quran has also prohibits employing the fragmentative approach which is similar to the linear approach. Fragmentative reading is one in which the text is dealt with away from the rest of texts and without considering the ties that connect texts to one another; the partial reading also means showing some texts and hiding others as is the case with Israelites .

Second: The Quran emphasizes the identity of the universe, Man and life in a systematic way as all are based on the principle of creator; they are all created by the Almighty Creator with all the creation required for a Creator , and that they are subjected to Man who should comply with his mission by populating and constructing the earth and founding a perfect human society on it.

Third: The Quran emphasizes Man's identity as the most important creature in this existence. This identity is formed by harmonizing two contradictory elements gathered in man; that is , a despised elements which represents Man's nature as being a creature created from dust and water and who is characterized by meekness and limitedness . On the other hand, Man is an honored creature created in the best form and was given capabilities that enable him to execute his duties on the earth by subjecting all other elements of the universe under him.

Fourth: The Quran emphasizes the identity of the universe as a sum of the components around Man. These are the source of the ornament and temptation which are able to attract and deceive man. They are subjected to Man and are significant for building human

civilization. The Quran shows Man's role in dealing with them carefully and investing them actively. It also drawns attention to the fact that the identity of universe elements is no more than God's creatures that are submitted to His will and also subjected to Man to be used and invested by him without creating an imbalance.

Fifth: As for the identity of life , the Glorious Quran constructs its special fields of knowledge based on systematic criteria .Among them is that life in this world is connected with the eternal hereafter. Also, life is trivial and tiny in comparison with the hereafter , and that it is a place of pleasure and of testing. It is described as a place of mortality . On the other hand , the Quran emphasizes its role in having supply for the hereafter . It is a passage and a preparation field for the hereafter. This aspect is sacred and Man should invest it actively not to satisfy his desires but to construct the universe and build the ideal society and get supplies for the hereafter.

Sixth: In general , the Glorious Quran buids knowledge and its foundations systematically, stemming from one origin which is universe and Man as one system. In other words , the inspiration and material existence are sources for human knowledge. In the light of this role , the present study calls for reconsidering human and Islamic thought, human and Islamic knowledge , and human and Islamic civilization to reconstruct them on the basis of the approach of the Glorious Quran .

استلم البحث في 20 /5/2004 وقبل للنشر في 17 /1/ 2005

المراجع

ابن منظور (1987) **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

بازمول، محمد بن عمر بن سالم (1995) **الحقيقة الشرعية في تفسير القرآن العظيم والسنة النبوية** ، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض.

الباقلاني، أبو بكر(1951) **إعجاز القرآن** ، شرح وتعليق عبد المنعم خفاجي، مطبعة محمد صبيح، مصر.

بريقش، محمد حسن(2003) **نحو منهج تربوي أصيل** ، مؤسسة الرسالة.

بن نبي، مالك(1984) **مشكلة الثقافة** (ترجمة عبد الصبور شاهين) ط4، دار الفكر،دمشق.

بن نبي، مالك(2000) **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي** (ترجمة بسام بركة وأحمد شعبو) دار الفكر، دمشق.

البوطي، محمد سعيد رمضان(1998) **منهج الحضارة الإنسانية في القرآن** ، دار الفكر، دمشق.

بيتروسيان وزملاؤه(1989) **دراسات في تاريخ الثقافة العربية** (ترجمة أيمن أبو الشعر)، دار المتقدم، موسكو.

الجاحظ(1968) **البيان والتبيين**، دار الفكر للجميع، القاهرة .

دراز، محمد عبد الله (1984) **النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن**، دار القلم، الكويت .

الدغامين، زياد خليل(1995) **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** ، دار البشير، الأردن.

الدغامين، زياد خليل(1998) مقاصد القرآن في فكر بديع الزمان سعيد النورسي ، **منشورات المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان سعيد النورسي في الفترة من 20-1998/9/22**، تحت عنوان فهم عصري للقرآن الكريم، استنابول، تركيا.

الرازي، فخر الدين محمد بن عمر (2000) **التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب**، دار الكتب العلمي ، بيروت.

الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (1987) **تاج العروس من جواهر القاموس** (تحقيق مصطفى حجازي)، التراث العربي.

الزمخشري (1977) **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، دار الفكر، القاهرة .

زريق، قسطنطين(1964) **في معركة الحضارة** ، ط3 ، دار العلم للملايين، بيروت.

سالو، قطب مصطفى (1998) مقاصد القرآن الكريم من المنظور النوري (عرض وتحليل وموازنة)، **منشورات المؤتمر العالمي الرابع لبديع الزمان النورسي في الفترة من 20-1988/9/22** تحت عنوان نحو فهم عصري للقرآن الكريم، استنابول، تركيا .

سعيد، عبد الستار فتح الله(1986) **المدخل إلى التفسير الموضوعي** ، دار الطباعة والنشر الإسلامية، مصر.

السنباطي، محمد (1980) **منهج ابن القيم في التفسير**، دار القلم، الكويت .

الشريف، كامل(1984) **الفكر الإسلامي بين المثالية والتطبيق** ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية.

الصدر، السيد محمد(1980) **مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن** ، دار التوجيه الإسلامي، بيروت-كويت.

عارف، نصر محمد (1994) **الحضارة – الثقافة المدنية** (دراسة لسيرة المصطلح ودلالة مفهومه) المعهد العالمي للفكر الإسلامي- الأردن.

عبد الحميد، محسن عبد الحميد(1989) **تطور تفسير القرآن - قراءة جديدة**، جامعة بغداد، بغداد.

العمري، محمد(2002)، أساليب تثبيت العقيدة في ضوء تقسيمات القرآن الكريم للناس، **مجلة أبحاث اليرموك، سلسلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، مجلد(18)** ، عدد(B2) جامعة اليرموك – الأردن.

العلواني، طه جابر(1994) **الأزمة الفكرية المعاصرة** ، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض.

الفرفور، ولي الدين محمد صالح(1999) **مدارك الحق القرآن الكريم ومباحثه** ، دار الفرفور- دمشق.

القحطاني، محمد بن سعيد بن سالم(1409هـ) **الولاء والبراء في الإسلام**.

القرضاوي، يوسف(2001/أ) **الإسلام حضارة الغد** ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

القرضاوي، يوسف (2001/ب) **كيف تتعامل مع القرآن الكريم** ، مؤسسة الؤسالة، بيروت.

المدرس، علاء الدين شمس الدين(1986) **الظاهرة القرآنية والعقل** ، مطبعة العاني، بغداد.

مرحبا، محمد عبد الرحمن (2000) **الموسوعة الفلسفية الشاملة من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية**، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان .

مسقاوي، عمر كامل(1979)، **نظرات في الفكر الإسلامي ومالك بن نبي** ، دار الفكر، دمشق.

مكرم، عبد العال سالم(1996) **الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني** ، مؤسسة الرسالة، بيروت.

الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة(1993) **ضوابط المعرفة وأصول الاستدلال والمناظرة** ، دار القلم- دمشق.

الندوي، أبو الحسن(2004) **المدخل إلى الدراسات القرآنية** ، مؤسسة الرسالة.

هلال، محمد (1992) **مفاهيم معاصرة في ضوء الإسلام** ، دار البشير- الأردن.

الهيثي، هادي نعمان(1988) **ثقافة الأطفال** ، سلسلة عالم المعرفة، الكويت.